# البنية اللغوية في ضوء المناهج اللسانية

أ.د. عبد الجليل مرتاض
(جامعة تلمسان)

## نظرة اللسانيات إلى اللغة

أصبحت اللسانيات الحديثة منذ زهاء قرن على الأقل، تتعامل مع اللغة تعاملاً وصفيا أكثر منه تعاملاً معيارياً، وجاعلة اللغة هدفاً في حد ذاته، وليست كواسطة للوصول من خلالها إلى معارف أخرى، وهي نظام لساني كوساطة للوصول من خلالها إلى معارف أخرى، وهي نظام لساني قائم بذاته متفتح على غيره من المتكلمين والمستعملين والدارسين، بل بالنظر إلى احتوائها في أحشائها مستويات وقوانين دقيقة ومنضبطة، فليس هذراً أن يُطْلَق عليها نظام أنظمةٍ، وكل نظام ما عداها يُلْصَق بها أو يُطَبّق عليها، لا يعدو أن يكون دخيلاً، لن تَلْبَثَ أن تَقْذِفه خارج نظامها اللساني الذي لا يماثله نظام سواه.

## نظرة اللسانيات إلى العناصر اللغوية

وغدت اللسانيات الحديثة تنظر إلى العناصر اللغوية التي تستعمل في أي تواصل أو خطاب، لا تركَّب فيها من قبيل الصدفة أو الحرية أو الحُطْوَةِ، مبيّنة أن كل عنصر منها لا يُفهم منعزلاً عما يتقدّمه أو يلحقه من عناصر مصاحبة لها، لتؤلف كلها بنية لسانية واحدة، فضلاً عن كون أي عنصر لا يكسب قيمته إلا بالنسبة لسائر العناصر كلها، وممن حاول إبراز

هذا الترابط من عدمه بين الجزء والكل سيّد البنيويين بدون منازع (دي سوسور)، إذ كان من الروّاد الذين لم يتردّدوا في اعتبار ما يوجد في علامة ما "من فكرة معينة، من مادة صوتية هو أقل أهمية مما يوجد حولها في العلامات الأخرى(1) مستدلاً على هذا الطرح، بأنه يمكن لنا تغيير عبارة ما دون "مسّ معناها وأصواتها، ولكن بسبب وقوع تعديل في عبارة أخرى مجاورة مستنتجاً بذلك أن اللغة لا تكون سلبية إلا في دالّها ومدلولها"(2)، معزولين، بينما هي إيجابية على مستوى بنيتها الكلية الحاضرة بقوة فعل الواقعة النحوية التي هي إحالات بمجالها المورفوسانتكسي (علم تراكيب البنى)، والتقابل فيها بالنسبة للغة كالعربية عادة ما يكون ثلاثياً أو ثنائياً:

- رفع / نصب / جر / ! اسم
- رفع / نصب / جزم / ! فعل
- مفرد / مثنى / جمع / ! فعل واسم
- جمع التكسير / جمع المذكر السالم / جمع المؤنث السالم
- فعل / فاعل / مفعول
- نعت / منعوت
- مؤنث / مذكر
- مستثنى / مستثنى منه
- أدوات نصب / جزم / جرّ
- .....

**ما يهم اللساني العلاقات**

وما يهمّ اللساني في هذه الحالة لا أهمية له بالنسبة إلى الأشكال، بل ما يعنيه بوجه أخصّ العلاقات التركيبية أو الترابطية المتداعية بين كل الأجزاء المكوّنة لبنية لسانية معينة "فقيمة الكل هي في أجزائه، كما أن

قيمة الأجزاء تتأتى من مكانتها في هذا الكل أو ذاك، ولهذا، فإن أهمية العلاقة التركيبية بين الجزء الكل، كأهميتها بين الأجزاء فيما بينها،... صحيح أن اللغة تقدم وحدات مستقلة دون علاقات تركيبية بأجزائها ولا بوحداتها الأخرى،، وأشباه الجمل (لا، نعم، شكرا) إلخ ... غير أن هذه الواقعة النادرة، لا تكفي على كل حال، للإخلال بالمبدأ العام، وبحسب القاعدة، فنحن لا نتكلم بعلامات منعزلة، وإنما بمجموعة علامات، بل وبكتل منتظمة هي نفسها أيضا علامات، وفي اللغة إذا كان كل شيء يرجع إلى الفوارق، فإنه أيضا يرجع إلى تجمعات"(3).

وإشارة إلى ما ورد أعلاه، فإننا حين نقرأ بيتاً شعرياً(4):

كأنّ غلامي إذ عَلاَ حال مَتْنِهِ  على ظهر بازٍ في السماء مُحَلِّقِ

فإنما نتلقاه بمجموعة:

1) فونيمات
2) وحدات دالة وكلمات
3) سانْتَغْمات (تراكيب) des syntagmes
4) جمل أو ملفوظات، ... إلخ

لنفهم في نهاية الأمر أن الشاعر يشبّه غلامه الراكب فوق فرسه (الشاعر) المارّ مراً سريعاً للانقضاض على طريدة بمن يركب ظهر بازٍ حلّق في السماء يطير طيراناً شديداً، فهذه الكتل المنتظمة في البيت في حد ذاته علامات، ومثلما توجد فوارق بين أصواتها ووحداتها ومستوياتها النحوية والصرفية والدلالية والبلاغية، وهي منعزلة، توجد فوارق علامات كُتَلِيّة ممثلة في كليتها.

## عناصر البنية اللغوية كلها مهمة

ومع ذلك، ينبغي ألاّ يُتَّخذ دائماً دي سوسور ذريعة سليمة، وحجة دامغة لكل فكرة من أفكاره، أو تصور من تصوراته، ومع اقتناعنا مبدئياً بما ورد عنده بشأن البنية اللغوية التي عبّر عنها بطريقته الخاصة، فإننا لَسْنا مرتاحين بأن ما يوجد من مادة صوتية أو فكرة معينة هو أقل أهمية مما يوجد حولها في العلامات اللسانية الأخرى، وإذا ما انطبق هذا على العلاقات الصوتية التباينية أو العناصر النحوية وبعض المواقع الإعرابية، بالنسبة للعربية على الأقل، مثل:

1) وقفت فيها أُصَيْلاَناً / أُصَيْلاَلاً
2) أردْتَ أن تَذِيمَه فمدَهْته / فمدحْتَه
3) وإن شفائي عَبْرة مُهَرَاقَةٌ /مُرَاقَةٌ
4) ليس من مْبِرّ مْصِيَامُ في مْسَفَرِ / ليس من البر الصيام في السفر
5) ما هذا بشراً / ما هذا بشر
6) ليس البرَّ أن تُوَلّوا وجوهكم / ليس البرُّ أن تولّوا وجوهكم
7) ليس الطِّيبُ إلا المسكَ / ليس الطيبُ إلا المسكُ
8) هؤلاءِ بناتي هنّ أطْهرُلكم / هؤلاء بناتي هُنَّ أَطهرَ لكمْ.

فإن هذا لا ينطبق على العلاقات التفاضلية:

1) ولد ≠ بلد، صام ≠ نام، فرد (بتفخيم الراء في الفصحى) ≠ فرد (بترقيق الراء في العامية).
2) لا رحمك الله ! قدْح وذمّ (دعاء عليه)
3) لا، ورحمك الله ! دعاء لك (بإدخال العنصر (الواو) تغيرت البنية)
4) فإنْ تنجُ منها يا حزيمَ بْنَ طارقٍ فقد تركتْ ما خَلْفَ ظهرِك بَلْقَعا

حيث لا تستغني البنية عن عنصر جواب الشرط (الفاء).

ولكنّا نقبل من دي سوسور قبولاً غير مشروط بأن الوحدة تمتزج صفاتها مع الوحدة ذاتها، وأن ما يميّز لساناً أو منظومة سيميولوجية هو كل ما يشكّلها، وأنّ ما يبدو عليها من اختلاف، كما في الأمثلة السابقة، هو الذي يشكّل صفتها على نحو معين.

**هل من تعريف شامل للبنية اللسانية ؟**

والبنية اللسانية هي البنية التجريدية لتي تمثّلها وقائع لسانية عبْر شبكة علاقات التعارض بين عناصرها التي تمكّن اللغة من أداء وظيفتها الأساس، أي وظيفة التبليغ، لكن الوصول إلى تعريف بنية لغوية بشكل نهائي، يقتضي منا أن نأخذ بعين الاعتبار كل أضرب البنيات التي يمكن لها أن تتشارك فيما بينها ككيانات مستقلة لتبعيات داخلية، وهذا حُلْم لساني، لا أعتقد أنه سوف يتحقق يوماً، لأن شخصاً واحداً يعجز عن دقة ملاحظة بنياته التي يرسلها أو يستقبلها، ولكن هذا لا يقودنا إلى شؤم مطلق، طالما أن ثَمَّة سبلاً تهدينا إلى الوقوف على الظواهر اللسانية لبنيات نموذجية يدور المتكلمون والمبدعون في فلكها، لكنْ بأداءات متباينة، بل يَحْدُث هذا إلزاماً على مستوى متكلم واحد، لأنه من السُّخْف والهَذَر التفكير في أن يردّد متكلم أو مبدع لبنيات نفسها، أو ليس أمامه إلا أن يبدع مرة واحدة ويخرس.

**دي سوسور أول مؤسس للبنيوية**

وبالنظر إلى هذه الرؤى البنيوية الديسوسورية غير المعلن عنها صراحة من الرجل، فإنك سواء نزلت باللسانيات البنيوية أم صعدت بها، وعلى تباين مدارسها، سوف لن تجد نفسك تحلّق مسافة بعيدة عن هذه

الرؤى المبطّنة تبطيناً بنيوياً. والواقع أن لساناً واحداً لا تَدْحَض حُجَّتُه بُطولاً إذا ما عُدَّ هذا اللساني الجنيفي أول مؤسس للبنيوية اللسانية، وأما ظهور مصطلح "بنية" منذ حلقة براغ عام 1929 ومؤتمر لاهاي سنة 1930، فلا يفيد أنه لم يكن مُتَدَاوَلاً عملياً لدى لسانيّين، ولك أن تتأكد من ذلك مما جاء أسماه دي سوسور مثلاً العلاقات التركيبية والترابطية:

السماء الأزرق ترتيب هرمي: سماء + أزرق = اسم

تركيب اسمي الـ + أزرق = تركيب اسمي

السماء أزرق سماء أزرق علاقة تركيبية (relation syntagmatique)

" " أدْكَن سماء أدكن علاقة استبدالية (relation paradigmatique)

## البنية بناء أو تأليف

غير أن ليونارد بلومفليد الذي يعتبره جورج مونان أحد الآباء للبنيوية ينفي كل إحالة إلى ما هو مفترض حدوثه في ذهننا عندما نتكلم، أي يرفض اللجوء إلى ذلك الاستبطان الذي عهدناه لدى اللغويين القدماء وحتى لسانيين محدثين، ومنهم دي سوسور نفسه، ومن ثَمَّ عَدَّ بلومفليد قضية المعنى إحدى نقاط الضعف في اللسانيات.

على حين، يرى بعض اللسانيين المتنورين أن كلمة «بنية» ليس لها عمق ميتافيزيقي أو إفراط في التجريد، وهي لا تعني جوهرياً، وبالمعنى الرائج للكلمة، إلا بناء أو تأليفاً، وبناء على هذا الطرح، فإن تحليل نصّ أو مدونة تحليلاً بنيوياً لا يعني بالدرجة الأولى إلا عَزْلَ الوحدات الحقيقية للبناء

اللغوي الذي هو مَدَارُ البحث والتحليل، أي لا تتعامل مع وحدات اللغة بما هو شائع في التحليل الإعرابي مثلاً (مبتدأ، نعت، فاعل، حال،...).

### انصياع البنية إلى التفكيك

ومثلما تنقاد البنية إلى البناء والتأليف تنصاع إلى التفكيك، والعكس بالعكس:

فتلك تُبْلِغُنِي النعمانَ إنَّ له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البَعَدِ

فهذا البيت النابغيّ يحوي إحدى وعشرين وحدة دالة دنيا، لكن هذه الوحدات المفككة لا تمانع متكلماً آخر غير النابغة الذبياني من أن يؤلّفها في مستويات سانتكسية ومورفولوجية ودلالية أخرى، بما أن كل بنية لا تمثل إلا نفسها وشكلها بموجب قوانين الخلق والتنظيم، ولذلك لم يصرح تروبتزكوي Troubetzekoy عبثاً، وهو يقول: «إن نظاماً فونولوجياً ليس مجموعاً ميكانيكياً لفونيمات معزولة، بل هو ذلك العضوي الكلي الذي فونيماته هي الأجزاء، والذي بنيته خاضعة إلى قوانين»(5)، وتعقيباً على نص تروبتزكوي، فإن إميل بنفنيست كتب يقول: «إن الأمر يتعلق إذاً بتحليل اللغة المطروحة كنظام، بحيث كلّ نظام مكوّن من وحدات تتكيف بالتبادل، وتنماز عن أنظمة أخرى من خلال التنسيق الداخلي لوحداتها، وعَبْرَ التنسيق الذي يكوّن البنية»(6).

### البنية تنسيق داخلي

وإذاً، فالبنية اللغوية هي، بكل بساطة التنسيق أو التصفيف الداخلي

لوحدت أحد مستويات التحليل التي لا يختلف بشأنها اللسانيون، بحيث كل مستوى يمثّل البنية الفونولوجية أو البنية السانتكسية أو البنية الدلالية لِلِسَانٍ، على أن يُتَصَوَّر أو يُفْهَم كل مستوى للتحليل من هذه المستويات الثلاثة كنظام أو نظام فرعي، وتبعاً لهذا الاستعمال، فإنه يمكن اعتباربنية المجموعة للسان مثل بنية أبنية.

## التلقي في ضوء المناهج

وما أشرنا إليه يلفت نظرنا لفتاً مُرْضِياً بأننا لن نوفَّق في التمييز بين خطاب أو بين تلقٍّ وآخر، إلا بالوقوف على مواقع عناصر البنية اللغوية عبر قراءة نَجِدُّ ما أمكن لتكون ممنهجة ومحدّدة تحديداً صارماً سلفاً، بصرف النظرعن الشكل أو الإجراء الذي نسلكه، لأنه في تقديرنا لا يوجد خطاب في مَنْجًى أو مَأْمنٍ عن الخضوع عنوة أو بطيبة خاطر إلى منهج من المناهج اللسانية والنقدية، وإذا ما حدث أن استعصى خطاب على دراسة هادفة، فإن الأمر لا يعني إلا شيئاً واحداً يكمن في أن هذا الخطاب وُلِدَ قبل منهجه، لأنه من الاعتقاد السطحي أن يرسخ في أذهاننا بأنه كلما سطع منهج جديد أَفَلَ منهج قديم، إن المناهج تتوالد مثلما تتناسل الخطابات، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، بل لعل شعورنا بمنهج قد يتسبّب في ظهور منهج آخر.

## نظرة النسقية إلى اللّسان

وكمثال على ما أشير إليه أعلاه بشأن البنية اللسانية، فإن مدرسة كوبنهاغن برائدها لويس هلمسليف، حاولت أن تعلو على النظريات الديسوسورية رغم انطلاقها منها، ولكنها لم تفلح فلاحاً أنسى اللسانيين المعاصرين لها أو حتى أتباعها دي سوسُّر، ولكن إضافاتها كانت حصيلة

جيدة، فهي تعتبر اللسان منظومة متكاملة منغلقة على نفسها، بل بنية من نوع خاص، واللسان الذي نتواصل به حضوراً وغياباً ليس تلك الكلمات المعجمية الصامتة وحسب، موضحة أن أهمية اللسان تكمن فيما أسمته العلاقات النسقية les relations glossématiques التي تنحو في تحليلها مناحي شكلية رياضية، أي اصطلاح صنعه هلمسليف محاولة منه لتمييز النسقية عن اللسانيات، ليتكفل فقط بوصف البنية الشكلية للألسنة، دون انشغال بالمعنى، كما هو الحال في الحساب الجبري، لكنّ إقامة نظرية جبرية ماثلة في طبيعة أخرى يتعدّى حدود وصرامة اللسانيات، ويبقى في حدود الإمكان أنسب لعلم السيميوطيقا العامّ، فهذه النظرية من جهة «تظهر بصفة شيء مستقل عن كل تجربة، فهي تشكل نظاماً ناقصاً بلا قيد ولا شرط، وبهذا المعنى، فإنها تسمح، بحد ذاتها، لإجراء حساب فقط للإمكانات التي تنبثق من معطيات مقترحة أو من قضايا أولية (مسلَّم بها) axiomes من الانطلاقة، وهذا الحساب يجب أن يكون استنباطياً، شمولياً، وكذا بسيطاً ما أمكن، ومن جهة أخرى، فإن المبادئ المسلَّم بها les axiomes تستجيب للشروط التي لا غِنَى عنها من أجل أن تقابل عدة وقائع لسانية، وفضلاً عن ذلك، فإن النظرية يجب أن تكون قادرة في تطبيقاتها على الوصول إلى نتائج مطابقة لِمَا نسميه الوقائع التجريبية، سواء كانت هذه الأخيرة موجودة أو مفتَرَضة»(7).

وتُنْتَقَدُ النسقية بأنها نظرية تنطلق من التجربة لتعود بعد حساب تجريدي بمعزل عن أي إحالة إلى التجربة، ومن ثم هي في الوقت نفسه تجريبية empérique واستنباطية أو تحليلية، مثلها مثل النظرية الفيزيائية مثلاً(8).

**بم تتميز النسقية ؟**

ويمكن لهذه النظرية الهلمسليفية أن تكون مُمَيَّزة بأربع سمات تالية(9):

1) توصي بأن يكون الإجراء أو طريقة البحث الشيء الوحيد الذي يوفي حق هذه النظرية، حيث كل وصف لوحدة يفترض التحليل للوظائف التي تؤلّفه، إذ إن الوحدة المُتَبَصَّرة أو أجزاءها لا وجود لها بموجب علاقات أو تبعياتٍ، بحيث إن هذه الوحدة تعهد مع الوحدات الأخرى من نفس المستوى، وأن العلاقات لأجزاء هذه الوحدة تتعهد فيما بينها.

2) تُنَحّي فكرة دي سُوسُّر القائلة إن اللسان شكل، وليس مادة(10)، وأن اللسانيات لا تدرس إلا الشكل، وأما المادة العديمة الشكل amorphe، بوصفها ما فوق لساني، فليست كافية لتعريف موضوع النسقية كبنية، ومن ثم فهي تتعذّر على المعرفة، ويتضح هذا من خلال التمييز الذي طرحه هلمسليف بين ما أسماه الماهية والمادة، حيث الماهية نفسها la substance قد ترادف المادة والجوهر، ولا يمكن تقريب هذا الموضوع إلا بإشارة إليه، ولو عرضاً، في مستوياته الأربعة:

أ) مادة المضمون، وتمثل الواقع الخارجي قبل أن تصوغه اللغة بالبناء والتنظيم داخل بنية لغوية معينة، أي هو كائن لم يكن بعد.

ب) شكل المضمون، وهذا المفهوم متقاطع مع أسماه دي سوسُّر المدلول الذي تحول من العدمية إلى الوجود، أو من الغياب إلى الحضور، أو من الإهمال إلى الاستعمال.

ج) شكل التعبير، وهو ما أسماه دي سُوسُّر تماماً الدالّ.

د) مادة التعبير، ويعني بها الكتلة الصوتية المنطوقة قبل أن تشملها اللغة في قالب صوتي سمعي معين.

3) الشكل عنده (هلمسليف) ليس التعبير (الدال عند دي سُوسُّر) وحسب، بل هو أيضا المحتوى (المدلول عند دي سُوسُّر)، إنّها أحد الفوارق بين النظرية البنيوية الأمريكية (بلومفليد) أو التمفصل المزدوج عند أندري مارتيني.

4) إن نسقية هلمسليف تعتبر اللغة كحالة خاصة من النظام السيميوطيقي، أي النظام الذي يحتمل مستويات مختلفة، وداخل كل مستوى، فارق بين الشكل والماهية (الجوهر أو المادة)، وبهذا الطرح نرى أن اللسانيات تتموضع في إطار السيميوطيقا العامة، وهنا يتداخل هلمسليف مع دي سوسُّر الذي صرّح بصوت عالٍ، ولغة واضحة، «يمكننا إذاً تصوُّر علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكّل جانباً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العامّ، إننا ندعوه بـ "الأعراضية" sémiologie تلك التي تدلّنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها، ... وما الألسنية إلا جزء من هذا العلم العامّ، ولعله من الممكن تطبيق القوانين التي ستكشفها الأعراضية على الألسنية»(11).

## طروحات النسقية

ولعل أهم ما طرحه هلمسليف أن الفرق بين لغتين يكمن في الشكل أو ما يسميه التعبير، وليس في المحتوى، أي في الدال، وليس في المدلول، أي في أصوات جبل، بحر، نهر، شجرة، فرس، ولد، أسد، ... وليس فيما تدل عليه هذه الأشياء، بمعنى أن الإحالات متشابهة أو واحدة، ولكن التعبير عنها مختلف من لغة إلى لغة، ومن هنا كانت الترجمة ممكنة، ولذا فليس

عجباً أن يطلق على هذا المنهج المنهج الشكلي، مادام أنه يعطي الأولوية في دراسة بنية لغوية إلى الشكل على حساب المضمون.

وفي الوقت الذي نجد فيه هذا المنهج النسقي ينكر ما يسمّى المترادفات في اللغة، بدعوى أن العناصر المعنوية للكلمات ليست متوازنة فيما بينها، وفيما تشير إليه (قد تتفق هنا مثلما قد تختلف هناك)، وأن العلاقات لها خصوصيات متشابهة تتمثل قبل أي شيء في مبدأ البنية، وليس في اختلافها إلا في كيفية التطبيق وفي الشكل، وليس في مادة جبل، وأسد، وعين، وقلم، ... فإنها تقصي ما يعرف بالوظيفة والدور المنوط باللسان في التبليغ، لأن هذا الدور يضطلع به المضمون، وهو بذلك يضرب المدرسة الوظيفية في الصميم.

## التوزيعية والظواهر اللسانية

وأما المنهج التوزيعي (1930) الذي انبثق من علم النفس السلوكي الذي كان مسيطراً سيطرة مطلقة على الفضاء الثقافي الأمريكي في تلك الآونة، فكان بريادة بلومفليد أول مطبق هذا المنهج على اللسانيات معتبراً الأحداث اللسانية ما هي إلا ظواهر سلوكية من نوع خاص، ذاهباً إلى أن كل تصرّف من شخص تغمره أو تخطر بباله رغبة في شيء ما إلا ويكون نتيجة لأعراض معينة تسبق تبليغه أو خطابه المسمَّى مُنَبِّهاً أو حافزاً أو مثيراً stimulus بوساطة أصوات يتلفظ بها، تقتضي ردّ فعل من المستمع، ويسمى ردّ الفعل هذا، أياً كان ضربه، استجابة réponse، لكن النقد الذي وُجِّه إلى هذه النظرية السلوكية أن الاستجابة للكلمة لم يكن استجابة للغرض، فكلمة «كلب» لا تَعَضّ، ونحن لا نأكل كلمة «تفاحة»(12).

## دعوة التوزيعية إلى مدوّنة محدَّدة

ويدعو المنهج التوزيعي إلى اختيار وقائع حسية قابلة لأن تُجَسَّد في الزمان والمكان حتى تكون ذات طابع علمي ملموس، ويرتكز في عملياته الدراسية على مدونة معينة على أن يشترط فيها التجاذب والنمذجة تفادياً من الوقوع في فخ الاستبطان l'introspection حاصراً مهمته التحليلية لأية مدونة في إضفاء وصف يتمتع بطابع منظم بعيد عن أن يكون مجرد قائمة لها طارحاً المعنى جانباً، رافضاً كل المسلمات التي ترى وراء كل إنتاج لرمز لغوي عملية غير مادية: فكرة، مفهوماً، صورة، إحساساً، عملاً إرادياً، إلخ»(13) ... منبهاً على أن التعابير الغائية أو الروحانية التي تشير إلى الفكر والوعي والمفاهيم لا تقدم أي خير لنا، بل تؤثر تأثيراً سيئاً على علم اللغة، داعياً (بلومفليد) إلى وصف الاتصال اللغوي انطلاقا من القضايا الملموسة، معتبراً أن تحديد المعنى يشكل نقطة الضعف في اللسانيات(14).

## اللفظ والمعنى عند بلومفليد

ورغم دفاع جورج مونان عن أفكار بلومفليد التوزيعية، فإن موقفه يظل غيرواضح إزاء اللفظ والمعنى، فهو تارة يَعُدّ المعنى قسماً مكمّلاً للغة، وتارة أخرى يعدّه خارجاً عن الإطار اللساني بدليل الإشارة السابقة، لأنه لا ينظر إلى اللغة إلا كمجموعة دوالّ فقط، ولكن خليفته هاريس حاول أن يطور هذا المنهج برفض المعنى كمبدأ نظري، مشيراً إلى أن التحليل البنيوي للنصوص ينبغي أن يتبنّى أولاً وأخيراً السياقات الخطية les contextes، أي أن نأخذ بعين الاعتبار الدوالّ الصوتية فقط، وهي وحدها تتحدد من خلالها أقسام الخطاب بمواقعها وليس بوظائفها التركيبية العامة.

ولعل أقرب ما نستوحيه من المناهج اللسانية الحديثة لمفهوم البنية يبعدنا أكثر فأكثر عنها، ويشرد بنا إلى متاهات مدرسية لسانية، وأعتقد أن الإدراك الأفضل للبنية اللغوية أن نتحدث عنها انطلاقاً من لغتنا المتواصل بها كظاهرة تبليغية مستقلة، لا من مناهج لسانية لم تحدّد هي بذاتها نفسها تحديداً مجمعاً عليه بين المنظرين اللسانيين.

وهذه الإشارة لا تنفي ما يمكن لكل دارس أن يفيد مما طُرِح بشأن البنية اللغوية من قبل منظرين لسانيين ذوي نزعات متباينة، ولكنها تعني فقط أن نستحضر ما يقرّبه اللسانيون أنفسهم من تأليف تحتي هنا، وتنافر هناك بين اللغات، ومن ثم فإن المنهج البنيوي الممكن تطبيقه على لغة ليس ضرورةً أن يُطَبَّق بحذافيره في آنٍ على لغة أخرى تملك خصوصيات وسمات بنيوية سيادية ينبغي على كل تحليل أن ينطلق منها، ويؤول إليها.

ومن باب الإنصاف القول إن منهجاً من هذه المناهج اللغوية الغربية الحديثة لم تنطلق إلا من الخصوصيات الداخلية (التحتية) والخارجية (السطحية) للغاتها، وحتى الآن لم تنضج نضجاً كاملاً، ولذلك لم تلق إجماعاً علمياً مُطَمْئِناً إياهم فيما يحلّلون، وفيما يدرسون، مما جعل باب التنظير اللساني مفتوحاً فتحاً شرعياً يسوده السبر والاجتهاد أكثر مما يحكمه المنطق والتجريب اللذان لا يقبلان أدنى ملاحظة أو تعقيب.

وكل ما نتمناه من بروز منهج لساني جديد أن يكمّل ما سبق أن برز من مناهج قديمة، ويسدّ ثغراته، بدلاً من أن يستخفّ به أو يَجِدَّ لدحْض رُؤاه، وإلاّ بقينا ندور في حلقة زمنية مفرغة بين مدرسة تنشأ هنا، ومدرسة تخبو هناك، وهذه الإشارات التي قد تبدو تحاملية هنا، لا تنكر إطلاقاً ماقدّمته عبقريات لسانية غربية للغاتها بخاصة، وللّسان البشري بعامة، من تنويرات وتجديدات يشمّها ويلمسها أيّ لساني مبتدئ.

## مقروئية البحث:

1 - محاضرات في الألسنية العامة، ص: 145 فرديناند دي سوسُّر، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دارنعمان للثقافة طبعة 1984.

2 - نفسه، ص: 145.

3 - نفسه، ص: 156 – 155.

4 - ديوان امرئ القيس، ص: 173 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط: 1964/2.

5 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 522.

6 - نفسه، ص: 523.

7-Dictionnaire de didactique des langues, p : 251, Galisson et D. Coste. Librairie Hachette 1976.

8 - السابق، ص: 251.

9 - نفسه، ص: 252.

10 - محاضرات في الألسنية العامة، ص: 147.

11 - نفسه، ص: 27.

12 - Comprendre la linguistique, p : 41 يراجع Sous la direction de Bernard Pottier, éditions marabout, paris, 1975.

13 - علم اللغة في القرن العشرين، ص: 115 جورج مونان، ترجمة: د. نجيب غزاوي، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق.

14 - نفسه، ص: 120.